

فيا أسفاً أين التُّقاةُ وأمرضها

مُبَعَّدَةٌ مِنْ عَيْنِ مَاءٍ يَنْضُرُ
مِنَ الْمِزْنِ حَتَّى عَادَ حَبْرٌ مَدْعَثَرُ
فَأَنْزَلَ رَبِّي حَرْبَةً لَا تُكَسِّرُ
لَأُفْحِمَ قَوْمًا جَابِرِينَ وَأُنْذِرُ
بِهِ تُمْلَأَنَّ الْأَرْضُ عُدْلًا وَتُثْمِرُ
فِيَا طَالِي رُشِدٍ عَلَى بَابِي اخْضُرُوا
أَذْكُرْكُمْ أَيَّامَكُمْ وَأُبَشِّرُ
فَهَلْ مِنْ رَشِيدٍ عَاقِلٍ يَتَدَبَّرُ
وَمَا الْبُخْلُ إِلَّا رُدٌّ مِنْ يَتَبَقَّرُ^(١)
فَإِنَّ كِتَابَ اللَّهِ يَهْدِي وَيُخْبِرُ
فِيَا عَجَبًا مَنْ فِطْرَةَ تَتَهَوَّرُ
وَمِنْ دُونِهِمْ فَهَيْمُ الْهَدَى مُتَعَسِّرُ
إِلَى سَاعِدٍ يُجَنِّدُ الدَّمَاءَ وَيُنْدِرُ^(٢)
إِذَا نَاشَهُ^(٣) طِفْلٌ ضَعِيفٌ مُحَقَّرُ
كَفَى الْعَوْدَ مِنْهُ الْبَدْءُ ضَرْبًا وَيُنْحِرُ
مِنَ الْوَحْيِ كَالسَّلْحِ^(٤) الَّذِي لَا يُنْوَرُ
وَإِنِّي أَرَى فَسَقًا عَلَى الْفِسْقِ يَظْهَرُ
وَدُقْتُ كَوْوَسَ الْمَوْتِ أَوْ كُنْتُ أَنْصَرُ
فَمَنْ ذَا الَّذِي يَبْكِي لِدِينٍ يُحَقَّرُ

وَكُنْتُ أَرَى الْإِسْلَامَ مِثْلَ حَدِيقَةٍ
فَمَا زِلْتُ أَسْقِيهَا وَأَسْقِي بِلَادَهَا
وَجَاشَتْ إِلَيَّ النَّفْسُ مِنْ فِتْنَةِ الْعِدَا
فَأَصْبَحْتُ أَسْتَقْرِى الرَّجَالَ رِجَالَهِمْ
وَإِنِّي أَنَا الْمَوْغُوذُ وَالْقَائِمُ الَّذِي
بِنَفْسِي تَجَلَّتْ طَلْعَةُ اللَّهِ لِلْوَرَى
خُذُوا حَظَّكُمْ مَنِّي فَإِنِّي إِمَامُكُمْ
وَقَدْ جِئْتُكُمْ بِأَقْوَمِ عِنْدَ ضَرُورَةٍ
وَمَا الْبُرُّ إِلَّا تَرْكُ بُخْلٍ مِنَ التُّقَى
وَقَالُوا إِلَى الْمَوْعُودِ لَيْسَ بِحَاجَةٍ
وَمَا هِيَ إِلَّا بِالْعَعْيُورِ دُعَابَةٌ
وَقَدْ جَاءَ قَوْلُ اللَّهِ بِالرُّسُلِ تَوْأَمًا
فَإِنَّ ظُبَى الْأَسْيَافِ تَحْتَاجُ دَائِمًا
بِعَضْبٍ رَقِيقِ الشَّفَرَتَيْنِ هَزِيمَةٌ
وَأَمَّا إِذَا أَخَذَ الْكَمِيَّ^(٥) مُفَقَّرًا^(٥)
إِذَا قَلَّ تَقْوَى الْمَرْءِ قَلَّ اقْتِبَاسُهُ
فِيَا أَسْفًا أَيْنَ التُّقَاةُ وَأَرْضُهَا
أَرَى ظُلْمَاتٍ لِيَتَنِي مِتُّ قَبْلَهَا
أَرَى كُلَّ مَحْجُوبٍ لِدُنْيَاةٍ بَاكِيًا

ودمعي بذكرٍ فصوره يتحدّرُ
وأرْحَى سِدِيلَ العَيِّ لَيْلٌ مَكْدَرُ
سَبَاعٌ بِأَرْضِ الهِنْدِ تَعْوِي وَتَزَأُرُ
وَقَلَّ صَلاَحُ النَّاسِ وَالعَيُّ يَكْثُرُ
بِهَا العَيْنُ وَالآرَامُ^(٧) تَمَشِي وَتَعْبُرُ
وَكَلُّ جَهْوَلٍ فِي الهَوَى يَتَبَخْتَرُ
وَمَا جُهِدْهُمْ إِلَّا لِحِظٍّ يَوْقَرُ
وَقَدْ سَرَّهُمْ سُكْرٌ وَفِسْقٌ وَمَيْسِرُ
وَمَنْ ذَا الَّذِي يَبْغِي السَّدَادَ وَيُؤَثِّرُ
وَمَنْ ذَا الَّذِي بَرَّ عَفِيفٌ مَطَهَّرُ
وَقَالَ: ذُرُونِي كَيْفَ أُوذِي وَأُكْفِرُ
وَأَعْلَمُ مَا لَا يَعْلَمُونَ وَأُبْصِرُ
وَلَوْلَا مِنَ الرَّحْمَنِ فَضْلٌ أَتَبَّرُ
وَعِنْدِي صُرَاخٌ لَا يَرَاهُ الْمُكْفَرُ
وَلِي كَلِمَاتٌ فِي الصَّلَاةِ تَقَعَّرُ^(٨)
وَتَأْوِي إِلَى قَوْلِي قُلُوبٌ تَطَهَّرُ
وَإِنَّ بَيَانِي فِي الصَّخُورِ يُؤَثِّرُ

وَلِلدَّيْنِ أَطْلَالَ أَرَاهَا كَلَاهِفِ
تَرَاءَتْ عَوَايَاتُ كَرِيحٍ مُجِيحَةٍ
تَهُبُّ رِيَاخُ عَاصِفَاتٍ كَأَنَّهَا
أَرَى الْفَاسِقِينَ الْمَفْسِدِينَ وَزُمْرَهُمْ
أَرَى عَيْنَ دِينِ اللَّهِ مِنْهُمْ تَكَدَّرَتْ
أَرَى الدَّيْنَ كَالْمَرْضَى عَلَى الْأَرْضِ رَاغِمًا
وَمَا هُمُّهُمْ إِلَّا لِحِظٍّ نَفُوسِهِمْ
نَسُوا نَهَجَ دِينِ اللَّهِ خُبثًا وَغَفْلَةً
وَمَنْ ذَا الَّذِي مِنْهُمْ يَخَافُ حَسِيبَهُ
وَمَنْ ذَا الَّذِي لَا يَفْجُرُ اللَّهُ عَامِدًا
وَمَنْ ذَا الَّذِي مَا سَبَّي لِتُقَاتِهِ
وَقَدْ ذَابَ قَلْبِي مِنْ مَصَائِبِ دِينِنَا
وَبِئْسَى وَحُزْنِي قَدْ تَجَاوَزَ حَدَّهُ
وَعِنْدِي دَمُوعٌ قَدْ طَلَعْنَ الْمَاقِيَا
وَلِي دَعَوَاتٌ صَاعِدَاتٌ إِلَى السَّمَاءِ
وَأُعْطِيَتْ تَأْثِيرًا مِنَ اللَّهِ خَالِقِي
وَإِنْ جَنَانِي جَاذِبٌ بِصَفَاتِهِ

(إعجاز أحمدى - الخزائن الروحانية، مجلد ١٩، ص ١٧٢ - ١٧٥)

شرح الكلمات الصعبة :

- (١) تَبَّرَ الرَّجُلُ: تَوَسَّعَ فِي الْعِلْمِ.
- (٢) أَنْدَرُ الْعِظْمُ: أزاله من موضعه.
- (٣) نَاشَةٌ: تَنَاوَلَهُ.
- (٤) الْكَمِيُّ: الشَّجَاعُ الْحَرْبِ.
- (٥) الْمَقَرُّ: السِّيفُ الْبِئَرُ الَّذِي يَقْطَعُ فَقَرَ الظَّهْرِ.
- (٦) السَّلْخُ: آخِرُ لِيَالِي الْقَمَرِ.
- (٧) الْعَيْنُ: بَقَرُ الْوَحُوشِ، وَالْآرَامُ: جَمْعُ الرِّيمِ وَهُوَ الظِّي الْأَبْيَضُ.
- (٨) الصَّلَاةُ: الصَّخْرَةُ، وَتَقَعَّرُ أَي تَدْخُلُ فِيهَا وَتَنْقَبُهَا.